الهوية الأنثوية وانفتاحها على الواقع العربي
"دراسة في أعمال الروائية سمر يزبك"

The presence of feminist narrative in the Arab World

A case study of the novelist Samar Yazbek

Ahlem Fateh Mami

Lecturer, Arabic Language Department

University of Arabi Tbsi, Algeria

Abstract

Female narrative discourse has become a firm place and a strong presence in the Arab literary arena, including the contemporary Syrian feminist narrative. All forms of oppression, injustice and suffering are placed in a negative and non-existent angle, a new female identity based on the detection of false relations between male and female, and corruption of patriarchal authority based on the principle of racism and discrimination.

The most important of all is the development of this particularity and its openness to the Arab reality; the erosion of political reality and the dismantling of most of the ruling classes dominated by sectarianism, which is the main pillar in the contemporary Syrian crisis, and the novelist Samar Yazbek this identity was best represented in its blogs, which was a mirror of a defeated and distracted social political reality.

More to the point, the novelist high lights the Progress of this approach and its openness to the Arabic world. She moves from the within to the without, 1.e. defending one self and revealing her suffering to uncovering today's melancholic reality. Thus, she steps toward the core of contemporary world, Syria; precisely speaking she sheds light on the defeat of dominant communities, the erosion of political facts, and dismantling most of the governmental communities, which are dominated by sectarianism. The latter is considered the catalyst behind the Syrian crisis.

Keywords: *Identity, Feminism, Reality, Arabic, Samar Yazbek.*

واجهت المرأة صعوبات كثيرة في مجال الإبداع والكتابة الروائية، أهمّها خوض معركة إيديولوجية ضد الرجل، متحدية هيمنته، مدمرة مركزيته اللانهائية المبنية على التسلط والقمع كما ترى الروائية؛ فكانت الكتابة النسوية بمثابة الميدان الذي قدمت فيه هويتها، مدافعة عن حقوقها المستلبة في ظل مجتمع ذكوري متسلط، ولكي تحافظ على هذه الهوية من الفقدان قلبت الموازين جاعلة الذكر في هامش المتن، معطية لذاتها قدرا كبيرا من السلطة والمركزية، ولم تبق هذه الهوية مقيدة بمعاناة الأنثى وقهرها والدفاع عن حقوقها، متجاوزة صورة الجسد، مقدمة بذلك هوية جديدة ضمن واقع عربي سياسي مأزوم، كاشفة عن ازدواجية المعايير التي تحكم هذه المجتمعات: اجتماعيا، سياسيا، ثقافيا، ولقد مثلت الروائية **سمر يزبك**[1] هذه الهوية خير تمثيل من خلال معالجتها للأزمة السورية المعاصرة وتعرية الأنظمة السياسية والعسكرية والأبوية الفاسدة.

5. الهوية الأنثوية:

التطرق إلى الكتابات النسوية يدفعنا للحديث عن مصطلحات عديدة ترتبط بهذا الخطاب أهمها: الهوية الأنثوية. وقبل أن نبدأ في التقديم المفاهيمي لهذا المصطلح علينا الإحاطة بالمفهوم النظري لكلمة هوية، تلك التي لها علاقة وثيقة بكل العلوم الإنسانية أهمها: الأدب، الفلسفة، السياسة، علم النفس، علم الاجتماع...، مما فرض عليها نوعاً من الذاتية لا يمكن نكرانها.

ويظهر سؤال الهوية كلما اهتز الكيان الحضاري لأمة من الأمم، أو فئة اجتماعية داخل المجتمع الواحد محدثا بذلك تخلخلا في نظام القيم والعلاقات[2] التي تحكمها. لقد طرحت الكاتبة هذه العلاقات من خلال رواياتها، مجسدة هويّة الأنثى في خضم التفكير الذكوري، مؤكدة بذلك على هوية الإنسان بصفة عامة التي تتشتت كلما مسّها سوء.

---

1 سمر يزبك روائية وإعلامية سورية حجزت موقعها على خريطة الأدب السوري الحديث، تشاغب في عوالمها الخاصة لتبني نهايات مفتوحة على أسئلة كبرى في الحياة. عملت ناشطة في مجال حقوق المرأة وحريتها، وهي محررة في موقع "نساء سوريا" الإلكتروني. قدمت للتلفزيون برامج ثقافية وفكرية من خلال "الفضائية السورية" وتلفزيون "أورينت". أصدرت لها "دار الآداب" روايات عدة، منها "صلصال"، و"رائحة القرفة"، وأخيراً "لها مرايا". انظروا: عمر الشيخ: الروائية السورية سمر يزبك لـ"النهار" غداة صدور"لها مرايا": الحديث عن الجسد ليس عيبا وتغييب الجنس عن الكتابة تزويرا، جريدة النهار اللبنانية، ع24176، 2010.

2 محمد نور الدين أفاية، الهوية والاختلاف"المرأة،الكتابة،الهامش"، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء-المغرب،ص: 15.

تصعب؛ الإحاطة بهذا الموضوع خاصة أن هذا الخطاب «يشي بأزمة في الدلالات والقيم»[1]. والفرد العربي خاصة يعاني من ازدواجية الهوية أو إن صح التعبير- تمزق الذات بين هويتين؛ الأولى موروثة يكتسبها من المجتمع الذي يعيش فيه، والثانية مخفية مسكوت عنها.

هوية موروثة ⟵ المجتمع ⟵ هوية مسكوت عنها

ليصبح بذلك المجتمع الركيزة الأساسية في تشكيل هويتين مختلفتين، وتؤكد على هذا كلام الروائية "نوال السعداوي"« فنحن الأفراد وفي كل المجتمعات وشتى الثقافات نتعلم من المهد إلى اللحد أن نستبدل قيمة أنفسنا بالقبول الاجتماعي، وتكامل شخصيتنا وأرواحنا بالتكيف الأخلاقي»[2]؛ لذا فالهوية المكتسبة ذات طابع اجتماعي، ولا يمكن للفرد أن يشكل هويته خارج مجتمعه باعتباره كائنا اجتماعيا خاضعا لقوانين الجماعة وتقاليدها، «إذ أن المجتمع هو الذي يفرض عليه هويته من خلال الموقع الذي حدده للفرد داخل النسيج الاجتماعي العام»[3].وإذا أسقطنا هذا المفهوم على هوية المؤنث، سنجد هذه التسمية (الهوية الأنثوية) تستمد وجودها انطلاقا من مجتمع ذكوري فرض عليها خصائص معينة، شكلت هويتها وفق نظام سلطوي صرف، خاضعة لمبدأ الآخر، فتكون الإحالة على العالم الخارجي المرجع الأساس في بناء الهوية. إذ تعمل الذات المتحدثة على صياغة حاجز تحتمي وراءه لكي لا تنكشف دواخلها ولا ترجع إلى هذه الحياة الداخلية إلا في حالات ردود الفعل إزاء الأحداث والأشياء والناس. وهذا ما يحدث بالضبط مع الهوية المؤنثة، فتبدو وكأنها غائبة، ممسوحة داخل تسلسل عادات المجتمع ونظامه[4].

فتفطنت المرأة إلى هذه الهوية الغائبة و المسكوت عنها ضمن الفكر الأبوي، ليصبح لـ

المؤنث ⟵ هوية موروثة ⟵ المجتمع الذكوري ⟵ تحكمها العادات

المؤنث ⟵ هوية جديدة ⟵ اللغة ⟵ تحكمها خصوصية أنثوية

ومن خلال اللغة قدمت الأنثى نفسها كجسد ولغة وفكر، مقتربة من الآخر، مبتعدة عن الاعتبارات التي فرضتها سلطته المرجعية، معيدة النظر في صورتها الهامشية و المقموعة بفعل سلطة الهوية الموروثة، فدخلت من خلال الكتابة إلى عالم تحولي يسوده القلق والاكتئاب، خاصة وأن الكتابة النسوية «لا تقف عند ظاهرها الإبداعي فقط وكأنما هي مجرد إنجاز ثقافي، ولكنها تتعدى ذلك

[1] المرجع السابق، ص15.

[2] نوال السعداوي، المرأة والجنس"الأنثى هي الأصل"، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت-لبنان،1974، ص: 57.

[3] محمد نور الدين أفاية، الهوية والاختلاف، ص: 20.

[4] المرجع نفسه، ص: 18.

لتكون ضرورة نفسية أكثر مما هي ضرورة ثقافية. ولذا فإنها ترتبط بالقلق وتتشابك الكتابة مع الاكتئاب»[1]. وعليه فهي عالم تحولي؛ يحول المرأة من حياة القناعة والتسليم والغفلة إلى قلق السؤال وقلق الوعي بما يحيط بها وما يجري وراءها ولها[2]. فمن خلال هذا القلق تظهر الهوية الجديدة التي تخاف عليها الأنثى من الضياع مجددا. محاولة بشتى الطرق المحافظة عليها، لأنه، «كلما كان الإنسان واعيا بوجوده زاد قلقه على هذا الوجود وزادت مقاومته للقوى التي تحاول تحطيمه»[3]. وانطلاقا من هذا الطرح سعت المرأة –خاصة المثقفة (روائية،شاعرة، ناشطة سياسية،...) بكل الوسائل المحافظة على هذا الكيان وحمايته من قوى المجتمع الذكوري الذي منحها هوية موروثة كان الهدف من ورائها ممارسة أساليبه السلطوية وجعل المرأة تابعة له دوما، لكن الأنثى تفطنت إلى وجودها الحقيقي، محاولة قلب الموازين وتدمير مركزيته.

6. **الذات الأنثوية من الهامش إلى المركز:**

قامت الرواية النسوية على مبدأ هام، تمثل في كشف المستور والمغيّب وإثبات الذّات، فجاء النص الروائي المؤنث في صيغة لغوية جديدة مفككة للخطاب الذكوري وسلطته وأعرافه وتقاليده. ممارسة من خلاله العنف المعلن (ضد الذكر) والمبطن (ضد الأنثى النمطية)؛ مقدمة صورة جديدة للأنثى. ومنه نتساءل:

بعدما فككت الأنثى شفرات المنظمات الذكورية وخطاباتها، هل استطاعت مشاركة الذكر في رؤيته وعالمه ومقاسمته للحياة وفق منظور واحد أم أنها قلبت الموازين لصالحها جاعلة الذكر في الهامش مستلمة قيادة العالم الروائي وغيره؟

لقد أشار الناقد "عبد الله إبراهيم" أن الرواية النسوية «تتنزل في منطقة التوتر العنيف بين امرأة طالعة للعالم من أجل أن يكون لها مكان في الفضاء العام، وبين ثقافة ذكورية أممّت هذا العالم لصالحها واحتكرته وصاغته طبقا لشروطها ومصالحها»[4]، انطلاقا من هذا تجسدت عزيمة المرأة لمواجهة هذه المصالح الضدية، التي وضعها العالم الذكوري في خدمة مصالحه وتقديم رؤية جديدة يمكن من خلالها أن تظهر المرأة بعيدا عن الحكم الأبوي المتسلّط، مما نتج عنها «صدام بين رؤية ذكورية غالبة ومهيمنة، ورؤية أنثوية ظاهرة لتوها تبحث عن ذاتها»[5].

---

[1] سوسن ناجي رضوان، الوعي بالكتابة في الخطاب النسائي العربي المعاصر، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة –مصر،2004، ص:05.

[2] عبد الله الغذامي، المرأة واللغة،ج1، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء-المغرب،ط3، 2006،ص: 135.

[3] المرجع السابق،ص: 135.

[4] عبد الله إبراهيم، المحاورات السردية، دار الأمان، الرباط- المغرب،ط1، 2011، ص: 139.

[5] المرجع نفسه،ص: 139.

تجاوزت الأنثى هذا الصدام، مكتشفة ذاتها متعمقة في هويتها الجديدة، مبتعدة عن التوجس الذي انتابها من الرؤية الذكورية، فجاء خطابها الجديد متسما بسمات خاصة نفت فيها كل هامشية، محدثة نقلة نوعية في قضية الإفصاح عن ذاتها، فلم تعد بحاجة إلى رجل يتكلم بلسانها، متخذة زاوية جديدة وصوتا مختلفا للتقاليد الأدبية.

فهاته القوة التي اكتسبها الخطاب الأنثوي اعتبرت بمثابة الامتحان الذي كشف ضعف المؤسسة الذكورية التي كانت مجرّد شراسة قسرية ومدعاة لا تنطوي على جوهر صامد[1]. فبدأ الاضمحلال يصيبها، ولم تعد لها المكانة الكبرى التي كانت تحتلها من قبل بسبب «العمل النقدي والضخم للحركة النسوية».

فظهرت روائيات عربيات كشفن المغيّب مستخدمان أقوى الأساليب في خلخلة المركزية، مما فعّل دورهن في بناء الذات وإدماجها ضمن المجتمع كعنصر بنّاء ونشط. نذكر منهن:**"ليلى بعلبكي، غادة السّمان، أحلام مستغانمي، خناثة بنونة، سمر يزبك..."**، هذه الأخيرة (سمر يزبك) لم تقم بثورة عنيفة على المجتمع الذي وضعها في زاوية الأنوثة السلبية التي تحكمها اللاءات الكثيرة فحسب، بل ثارت على الأنوثة نفسها، وكأنها هي السبب في الوضع المزري الذي تعيشه.

قد صرحت الروائية في مدونتها **"طفلة السماء"**: «أن تكون أنثى يعني أن تكون غير موجودة، الأنوثة لا وجود لها في تعاليمنا».

انطلاقا من هذا الطرح المستفز، كسرت الروائية جميع الحواجز، فتبنت قضيتها وقضية مجتمعها من الناحية السياسية والاجتماعية خاصة، جاعلة من ذاتها المركزية اللّامتناهية، ممثلة التحول الجديد والانعكاس السلطوي خير تمثيل. فجاء خطابها صورة لحركية واقع عربي مأزوم، كان الرجل ولا يزال هو السبب الرئيسي في تأزمه وتدهوره نحو الأسوأ مما جعلها تضعه في الهامش لتبدأ مرحلة جديدة لا تفرض فيها نفسها كأنثى وإنّما كذات فاعلة في عالمها الخارجي الذي كان حكرا على الذكر.

7. الخطاب الأنثوي(الأنثى الجديدة) وحركية الواقع العربي:

عادت الأنثى بحضورها القوي الذي كان مغيّبا، وبروز صوتها الذي قتله تسلط المجتمع ورتابته، جاعلة منه سلطة قائمة بذاتها مشكلة بذلك فكرا عاليا يعتمد على إبراز العلاقات الاجتماعية والسياسية والثقافية المبنية على جدلية الصراع والتداخل. مكتسبة وعيا جديدا جعلها تسير في طريق تحرري ثوري سياسي، كانت لأزمات الواقع العربي المعاصر تأثيرا بالغا فيه، خاصة ثورات الربيع العربي(سوريا) وتجلى هذا الوعي بصورة أكبر في روايات سمر التي قدمت صورة للمرأة

الايجابية المتفاعلة مع حركية الواقع والمجتمع ورصد أهم الوقائع التي اعتمدت عليها هذه الصورة الأنثوية الجديدة.

كان الهم السياسي هو الدافع الأساسي لنضج هذا النوع من الكتابة، فمن خلال خطاباتها تم تفكيك بعض بنى الطبقات الحاكمة في المجتمع العربي مع إعادة قراءة للأنظمة التي أفرزت حركات سياسية مختلفة، بالإضافة إلى ذلك تقديم هزيمة الشخصيات الذكورية، لتكون شخصية الأنثى هي المتفوقة في الخطاب الجديد؛ باعتبارها البطلة الرئيسية الأولى التي تقف إلى جانب بطلها دائما تدفعه إلى المشاركة التي تأخذ وتعطي، لكنها متفوقة في العطاء، حتى ليبدو في النهاية أنها هي التي كانت تتقدم على البطل منذ البداية[1].

فجاءت صورة المرأة الجديدة مختلفة عن الصورة النمطية القديمة الضعيفة، متميزة بوجودها كامرأة وإنسانة تربطها علاقة وثيقة الوطني، الاجتماعي، السياسي، وغيره؛ لأن نضالها على المستوى الشخصي لا يمكن أن يتحقق إلّا بالنضال لتحرير المجتمع من مختلف أشكال الظلم والعبودية. وبث الوعي في أبناء شعبها واستنهاضه لمقاومة الاستبداد، وتحدي التسلط الناتج عن الحكام وسوء إدارتهم للوطن[2].

فهي لم تعد ترى أن شرفها يتجسد بالحفاظ على جسدها، وصون طهارته فقط في الوقت الذي ينتهك المستغل المستبد لشرف بلدها[3]. انطلاقاً من هذه الرؤية برزت صور الأنثى كالآتي:

أ- الأنثى الثائرة سياسيا:

أهم ما يميز هذه الأنثى طموحها الكبير في تغيير الأوضاع الاجتماعية والسياسية المحيطة بها، باعتبارها امرأة جديدة تحمل قضية، تمثل بالنسبة إليها الدافع الأساسي لقوتها، مكونة مواقف تسعى من خلالها للحفاظ على مستقبل الوطن، ذلك الذي يعد أثمن بكثير من مستقبلها الشخصي المتعلق برجل كان سببا في معاناتها. وقد تجلت هذه الأنثى في روايات سمر يزبك حاملة دوافع الثورة السورية المعاصرة، معبرة عن وجهة النظر السياسية في كتابها **"تقاطع نيران"** الممثلة لموقع مجموعة قتالية وسياسية في مرمى نيران متعددة من العدو والصديق.

بدت متأسفة على وضع البلاد في قولها: «هكذا هي البلاد..قطعة دانتيلا ممزقة، ونحن نطير بين الخيوط التي تفصلها بعضها عن بعض تتطاير مثل جنيات نارية، تختفي وتظهر فجأة، وتحترق وتتهاوى بلا أسئلة»[1].

---

[1] أميمة الخش، شهادة في التجربة الروائية، عدد خاص بالرواية السورية المعاصرة "دراسات اشتراكية"،ع182، 183، آذار،حزيران،2000، ص: 410.

[2] إيمان قاضي، الرواية النسوية في بلاد الشام، ص: 140.

[3] المرجع نفسه، ص: 140.

جاءت البطلة في هذا النص، وهو سيرة ذاتية سردت فيها سمر يزبك سيرتها أثناء الأزمة السورية المعاصرة مواجهة الموت الذي تعودت على رائحته وصوره بكل أشكاله: «إنه الموت، الكائن المتحرك الذي يمشي على قدمين الآن، واسمع صوته، وأحدق فيه. أنا التي تعرف طعمه، أنا التي تعرف طعم السكين على الرقبة، وطعم الأحذية على الرقبة، عرفته منذ زمن بعيد»[2].

مؤكّدة بذلك أن الأنثى تعرف طعم الموت منذ ولادتها في مجتمع ذكوري فجاءت كلمتي (السكين، الأحذية) تحمل دلالة ذكورية قاطعة. ليصبح الموت ملازما لها على مدى الحياة من جهة، وموقفا يرسم شجاعتها في الأزمات من جهة أخرى، خاصة وأنها تعيش في بلد الأزمة -سوريا- ذلك يوطد عزيمتها في الدخول إلى المناطق الملغمة بالقتل والوحشية مصرحة في قولها: «لم اعد أخاف الموت نحن نتنفس الموت»[3]؛ لتتشكل بعدها الثنائية الضدية التي تجمع بين شجاعة الأنثى وجبن الذكر الذي يحتمي بالأسطح والبنايات حفاظا على نفسه، مشكلا ثورة دموية يستهدف فيها الضعفاء من شعب بلده المسالم، فعبرت بقولها: «من يقتل وراء الأسطح والأبنية قاتل جبان. وكيف يمكن أن يكون شجاعاً، فهو مجرّد من شرطه الأخلاقي سلفا»[4].

فالضمير الغائب المذكر (هو) يحمل دلالة استهزائية للذكر واصفاً بذلك منظومته اللاأخلاقية، لتصبح الأنثى الجديدة ذات وعي أكبر منه بمكانة وطنها، فضميرها الحي يجعل منها ثائرة متمردة واعية بأوجاع شعبها.

عندما تقف الأنثى بين متطلبات جسدها ومتطلبات وطنها فان شيطانها الأخرس عن حقوقها كأنثى يخرج عن صمته، خاصة إذا تعلق الأمر بسياسة الوطن، «عزلاء إلا من ضميري لا يعنيني إن كانت الفترات القادمة تحمل إسلاما معتدلا وما يقال حول هذا الأمر، لا يعنيني وجه القتلة(...) أنا الآن يعنيني أن لا أكون شيطانا أخرس عندما تصير الدماء لغة بين الناس»[5]، بين مرحلة الإسلام المعتدل القادمة ومرحلة القتل وسفك الدماء، تتحرك الشخصية البطلة بين هاتين المرحلتين، لتقف مع لغة الدماء، ففرارها من مدينة جبلّة كان من أجل تبنّي قضيتها والوقوف مع الحق حتى لو كان بالتخلي عن الأهل والأقارب والعائلة. هذا القرار الذي اتخذته كان بمثابة الموت الأول لها، لأن الخروج عن العائلة والوقوف بوجه تعاليمها هو خيانة وتمرد عقوبتها الموت، فتصبح الشخصية الأنثوية الجديدة تواجه نوعين من الموت، يختلف كل واحد منهما عن الآخر:

---

[1] سمر يزبك، تقاطع نيران"من يوميات الانتفاضة السورية"، دار الآداب، بيروت-لبنان،ط1، 2012،ص: 63.

[2] المصدر نفسه، ص: 12.

[3] المصدر نفسه، ص: 13.

[4] المصدر نفسه، ص: 14.

[5] المصدر السابق، ص: 20.

1- خرق قوانين العائلة ومجتمع جبلة ⟵ خيانة وتمرد ⟵ الموت

تقول: «لقد عبرت أمام الموت الأول،واستعد لرؤية موت جديد»[1].

2- الأزمة السورية ومقاومة الفساد السياسي ⟵ حرية وإثبات للحضور ⟵ المغيب الموت.

يؤكد على ذلك قولها: «في كل مرة من حياتي وعندما أكون على مفترق طرق،انحاز لهذا القدر..انحاز لحريتي»[2].

فعملها ككاتبة وصحفية يجعلها معرضة للموت، خاصة في خضم التظاهرات التي كانت تسعى إلى تصويرها في جو تنبعث منه رائحة الرعب والخوف، فجاء الحقل اللغوي غنياً بالمصطلحات الدالة على الموت والرعب والتحدي...،(الحصار،الدماء، الإعلام،الهتافات،المواجهة...) فتصبح الحياة سبيلا لفداء القضية الوطنية، وقربانا لها، «اسأل عما يحدث، ينصحني الجميع بالابتعاد، لا توجد نساء، قال لي أحدهم باستهزاء: ما الذي تفعلينه هنا؟ أدرت له ظهري، وعلت الهتافات مع الأعلام والصور، كان الأمن يحيط بالجامع، الجامع فعلا محاصر. لا أعرف إن كان بإمكاني الدخول، الطريقة الوحيدة هي الاندساس بين الذين يحملون الصور والأعلام»[3].

التجاهل لكلمة "نساء" من قبل البطلة هو إثبات للآخر، بأن الميدان السياسي لا يفضل الرجل على المرأة فكل واحد منهما يتبنى القضية نفسها، أو إن صح التعبير؛ هو اختراق للرؤية الذكورية التي قيدت الأنثى بالضعف والخوف والمكوث في البيت.

هذا الطرح يثبت شجاعة الأنثى في مقابل جبن الذكر الذي تصفه البطلة في حوارها مع السائق الذي كان حذرا في حديثه عن الطائفية والفتنة السياسية التي حلت بالبلد السوري، وخوفه من مواجهة العصابات المدعية حماية الوطن، في قولها:

«يتحول السائق إلى وصي وواعظ، يقول: الطريق مقطوعة إليَّ دُومَا، ممنوع الدخول إليها. أقول له: وهل دُومَا محاصرة أيضا، يقول بلا هيك حَكي يا أختي أنا ما إلي دخل. من أخبرك؟ أساله. الجيش هناك، وأصوات إطلاق نار. يقول: يا عم شو رأيك؟ شو عم يصير؟ يقول ما إلي دخل. أنا يدوب عايش. أقول له: ولكن الناس تموت. قال:كلنا سنموت، والله يرحمهم. قلت له: لو أن واحدا من أولادك قُتل ماذا تفعل؟ صمت قليلا وهز برأسه وقال: الدنيا كلها ما بتكفيني فيه. قلت له: سمعت أن احد الشباب الذين استشهدوا في درعا وضعوه في البراد، وهو حي، ولما اخرجوا جثته، وجدوه قد

[1] المصدر نفسه، ص: 40.

[2] المصدر نفسه، ص: 66.

[3] المصدر السابق، ص: 19.

كتب بدمه: وضعوني هنا وأنا حي، سلامي لأمي. صمت وهز رأسه. قلت: أرجو أن يكون هذا غير صحيح. صمت واحمرت أذناه»[1].

تصرح البطلة هنا بتدمير المركزية الذكورية والإعلاء من شأن المرأة من قبل الذكر نفسه وهذا ما يجسده قول الشاب (سلامي لأمي) لم يقل أبي لأن الأم هي التي كانت رفقته أثناء المعركة، وهذا تقرير صريح بهزيمة الذكر وسلطته ليبدأ مجد المرأة المغيب.

فبطلة تقاطع نيران، امرأة منفتحة واعية ذات شخصية مستقلة في اخذ القرارات، تملك كل المقومات التي تجعل منها امرأة جديدة ثائرة، لا تخشى الخوف، متحدية الموت، متحملة الأوجاع والآلام، من أجل الوطن الذي اتخذت فيه قرار، إما «الدماء أو الذل، لا مفر من أحدهما»[2].

ب- الأنثى المتمردة:

التمرد هو ثورة يتم من خلالها التعبير عن الواقع وانتقاد الأوضاع المسببة للمعاناة؛ «ذلك أن تغيير الواقع يحتاج إلى ثورة اجتماعية أو إلى مدى تاريخي، أما التمرد بالمعنى الفلسفي فهو فعل التحدي الذي يمارسه الفرد ضد قوى عاتية لا يستطيع إلحاق الهزيمة بها، ولكنه يواصل الصراع، رغم تكرار الفشل، لأن لا خيار أمام الإنسان سوى التمرد»[3]. الذي نتج عنه رفض الأنثى للمسار الحياتي المبني على منظومة القيم الاجتماعية والتقليدية البطريركية. محاولة تحقيق توازنها، والبحث عن حريتها المفقودة بين الهوية الموروثة والمسكوت عنها. إذ نجد شخصية نور في رواية **(طفلة السماء)** تتميز بازدواجية الشخصية نتيجة قرارات وعقوبات قاسية طُبقت بحقها من طرف الذكر(الأب)، لذا الشخصية الأولى تأمرها بالخضوع والاستسلام، والشخصية الثانية تدفعها للتمرد على القوانين واكتشاف ذاتها تقول: «بدأ السجال كالعادة، بين نور طفلة الأرض، ونور طفلة السماء، طفلة السماء تبكي بوجل وهي تتخيل العيون المحدقة بها، تعري جسدها، وتشعر بالذنب لأنها تسبب الألم لمن حولها. طفلة الأرض تنهرها بأن ذلك من حقها، ألم تمنع من الحركة خارج البيت؟ وحرّم عليها رؤية سالم، حرمت من أمها وجدتها، حرمت من ضوء الشمس»[4].

من خلال هذه التناقضات تقرر البطلة الاستماع إلى قرارات نور طفلة الأرض، وتبدأ في البحث عن ذاتها، فكان الهروب من البيت هو الحل الأول للبحث عن الذات، هروب من العائلة وجبروت الأب

---

[1] -المصدر نفسه، ص: 21،22.

[2] نزيه أبو نضال، تمرد الأنثى، المؤسسة العربية، بيروت-لبنان،ط1،2004،ص: 25.

[3] نزيه أبو نضال، تمرد الأنثى، المؤسسة العربية، بيروت-لبنان،ط1،2004،ص: 25.

[4] سمر يزبك، طفلة السماء، ص: 11.

وقراراته وتدخل الأعمام، هروب يضمن لها حريتها «حرية الأساس بأن أضع قدمي حيث أشاء، أشعرتني بثقل وجودي على الأرض سوف امشي وحيدة، دون محظورات المحيطين بي»[1].

يتواصل هذا التمرد، بعدم تقبل الأنثى البطلة لكلام الأم الخاضع للفكر الأبوي، تصرح والدتها قائلة: «المرأة تبقى دوماً أقل من الرجل. لأن الله خلقها هكذا ومن أجل أن تستمر الحياة يجب أن يكون هناك قائدًا واحدًا للسفينة حتى تسير باتجاه صحيح نحو الهدف»[2]. بل حاولت خرق هذا الفكر النمطي مؤكدة أن إدارة الحياة يمكن أن تكون متساوية بين الرجل والمرأة لذا منذ تلك اللحظة « قررت معرفة ما يجري في عوالم الرجال السرية تلك»[3]. لتتعلم الطريقة الصحيحة على حد قول أمها لإدارة الحياة.

فالنص الأنثوي الجديد يفيض بقيم البحث عن الذات، والرغبة في مجاراة الرجل والتشبه به، فحتى الحلم يكون فيه تمرد على جنس الأنثى ومكوناتها، ورفضها للألعاب الأنثوية فنور طفلة السماء، تحلم بأن تكون ذكرًا تقول: «أتخيل نفسي أحد التجار الذي يجوبون العالم وينتقلون في الأرض مثل الغيوم التي لا يقف في طريقها عائق، وفي مرات أخرى حلمت أني أجوب أزقته الضيقة، متنكرة في ثياب ولد فقير»[4]. فالتنكر في صورة الرجل يمنح لها حرية أكبر، وقدرة على الانتقال لأي مكان دون قيود؛ لذا فالأنوثة هي بمثابة السجن مقارنة مع الحرية التي يملكها الذكر على حد قول جدتها «أن تكوني أنثى يعني أن تكوني غير موجودة فالأنوثة لا وجود لها في تعاليمنا يا نور»[5].

يتجلى التمرد على اللعب الأنثوية في رواية **"لها مرايا"** إذ تتجه ليلى إلى لعبة ذكورية، محاولة دخول عالم الذكر وتقمص شخصيته، « علي يصرخ بها: هيا يا بطل يا كونتا كينتي..ثم لمست خدها، تحاول تقليد حركات أصابعه، وهو يمرغ الوحل على وجهها ليجعلها ذلك الفتى الأسود»[6].

فالميل إلى هذه الألعاب وتقمص الشخصية الذكورية هو تحدي للعالم الذكوري و للنفس الأنثوية أيضا.

الشخصية الأنثوية محاصرة بأساليب الأمر والنهي التي تعطل قدرتها على التفكير وتجعل وعيها الأنثوي خاضعا للمباحات والممنوعات الذكورية، خاصة وأن الرجل ينظر دوما إلى المرأة على أنها ابنة الموروث الذكوري النمطي المتسلط. فعادل يخاطب نور «لا تحاولي التحدث مطلقا عن الحرية،

---

[1] المصدر نفسه، ص: 04.

[2] المصدر نفسه، ص: 26.

[3] المصدرالسابق، ص: 27.

[4] طفلة السماء، ص: 37.

[5] المصدر نفسه، ص: 12.

[6] سمر يزبك، لها مرايا، دار الآداب، بيروت-لبنان، ط1، 2010،ص: 289.

إياك فأنت ابنة عائلتك بامتياز، ابنة الموروث المتخلف من الأحكام الجاهزة في عقول البشر. الرجولة، الشجاعة، الفحولة...؟»[1].

التحدث عن الحرية ليس من صلاحيات الأنثى، هذا ما يزيد من ثورتها وتمردها على أنوثتها الضعيفة التي قيدتها قرارات جائرة. يستمر التمرد في مدونات سمر يزبك ليصل إلى بطلة رواية" **رائحة القرفة**" التي كانت مثالا للقوة والشجاعة والوحشية معاف «كان الأطفال من حولها يخافون التحرش بها، خوفا من الخدوش العميقة التي سترسمها على وجه احدهم، عندما يتجرأ ويعتدي عليها»[2].

فاختفت الصورة النمطية للأنثى صاحبة البينة الضعيفة، حتى التهديد أصبح من صفاتها الأساسية في قولها: «رجل ابن رجل يلحق بي»[3].

هذا التهديد الذي تبنته "عليا" لا يخص شخصا واحدا فقط إنما هو تهديد يشمل المنظومة الذكورية كلها، (الأب العم...كل ذكر مستلب لحق الأنثى).

إذا كانت نور اتخذت من الهروب وسيلة لإثبات حضورها المغيب، فان ليلى بطلة لها مرايا جعلت من المرايا نافذة للبحث عن الذات واكتشافها، مع طرح الأسئلة الوجودية التي هي بمثابة خطة لتمردها على واقع مظلم «بينما توزع نظراتها في المرايا الكثيرة التي تحيط بها في الغرفة البيضاء، الغرفة التي تحولت إلى لعبة للمرايا تشعل ضوء المصباح الصغير قرب السرير، وتنظر إلى المرأة، فتبدو مثل نقطة بعيدة قادمة من ظلام لانهائي. تغمض عينيها وتشعر أنها صارت بأمان، وان كمية الانعكاسات المنتشرة حولها صارت أقرب إلى تحقيق وجودها نفسه»[4].

تتجه الذات وهي تعاني من الازدواجية إلى المرآة، متخلية عن الوجه المفروض عليها أو بالأحرى الأوجه العديدة التي فرضها عليها مجتمعها، باحثة عن وجهها الحقيقي ضمن وجوه متعددة، وجه الأنثى الجديدة الثائرة على كل ما هو ذكوري، وجه تمردي منسجم مع نزعتها التحررية، لعبة المرايا جعلتها تصنع لنفسها هدفاً واحدًا هو أن تتحرر من جسدها، والبحث عن وجودها الحقيقي، وجود تكسر به شوكة الرجل[5].

---

[1] سمر يزبك، طفلة السماء،ص: 98،99.

[2] سمر يزبك، رائحة القرفة، دار الآداب، بيروت-لبنان، ط1،2008،ص: 32.

[3] المصدر نفسه، ص: 35.

[4] لها مرايا،ص: 119،120.

[5] ليلى محمد بلخير، خطاب المؤنث في الرواية الجزائرية، مؤسسة حسين رأس الجبل للنشر، قسنطينة-الجزائر،2016، ص: 173.

جمعت سمر يزبك بين الوطن والمرأة (الأنثى) في شخصية ليلى التي تعيش حيوات متعددة فرضها عليها المجتمع، «عندما قرأت اسمها انشق واد من النور في قلبها، وارتجفت ومسحت دموعها وجحظت عيناها وتابعت:

ليلى: صغيرتي، ولا تلومي جماعتنا بعد أن أحاطت بهم كل التهم والافتراءات من زندقة، لأنهم كانوا أصحاب إعمال عقلي، لابد لهم من أن يعرفوا أن حالهم الآن ليس أصلهم، وأن التطورات التي جعلتهم ينجرفون عن حقيقتهم، لا يجب أن تجعلهم يغمضون أعينهم عنا»[1].

فكان مسار الوطن محكوم بمسار ليلى، فثورات ليلى النفسية والتشتت الذي تعيشه هو نفسه ثورات الربيع العربي التي شتتت الدول العربية وفرقتها بسب التفكير الحاكم المتسلط النفعي المتبني لمخططات غربية لا يفقه فيها شيئا. وبهذا ترسم هزيمة الذكر (الحاكم) الذي كان يفرض قوته على الأنثى النمطية، وتقلب الموازين جاعلة من الذكر يعيش تحت رحمة الأنثى طالبا مغفرتها «لك أن تسامحي شعبنا عندما يحولهم القتل إلى كائنات مخيفة، لا تنخدعي ليلى كل ما ترينه من حضور أبناء جماعتك هو قشور لا تمت لحقيقتهم بصلة»[2].

الأنثى الجديدة ⟵ ليلى ⟵ الوطن

يعرض السرد الروائي شخصية ليلى كنموذج للمرأة الجديدة المتحررة والمقيدة في الآن نفسه؛ متحررة من سلطة الذكر كأنثى، مقيدة بضعفه كوطن باعتباره مشتتا فاقدا لذاكرته التاريخية. من هذا المنطلق تقرأ ليلى الصاوي رسائل جدها الذي بث من خلالها (ليلى) واقع الوطن العربي - السوري خاصة- مع رصد لأهم المبادئ التي تعتمد عليها الطائفة العلوية المنبوذة من طرف الكثير، في قوله «الحقيقي منا لا يحلم بسلطة الحقيقي منا منذور للفكر والعقل العدل. ولكما في الإمام علي ابن أبي طالب مثال»[3].

الروائية دخلت إلى عالم الطائفية الذي يهابه الجميع، مقدمة الصورة الحقيقية لطائفتها، من خلال رسائل جد ليلى الصاوي.

في خاتمة هذا البحث نصل إلى أن:

الهوية الأنثوية أثبتت حضورها المغيّب من خلال الكشف عن الهوية المسكوت عنها، والظهور بصور جديدة تحكمها الروح الثائرة والمتمردة، ليتحول هذا التمرد إلى ثورة على المستويات السياسية والاجتماعية، حاملة معاناة فردية اجتماعية، أكدت من خلالها الصور التي كانت مغيبة من قبل المجتمع الذكوري من جهة، و كشف المستور في الساحة السياسة الاجتماعية من أزمات سياسية

[1] سمر يزبك، لها مرايا، ص: 230.

[2] المصدر نفسه، ص: 232.

[3] المصدر السابق، ص: 228.

وطائفية وشذوذ جنسي مازال يحكم معظم المجتمعات العربية. ورصد الهزيمة الذكورية التي شتتت العالم العربي وكانت سبباً في إخفاق أنظمته الحاكمة.